حوار الثقافة

تمهيد: كنتُ قد نشرت مقالةً بموضوع:

مع الصحفي العراقي جميل روفائيل.

الآفاق غير المنظورة لخدمات الإنترنيت – إنسانياً.

وها إني هنا أعود إلى جميل روفائيل – الذي تربطني به أواصر الثقافة منذ ما يزيد على ربع القرن؛ اليوم أتحدث عن معين الثقافة، الذي يرنو إلى نبعه فيرتوي منه المشغوفون بالثقافة، فلا يبخلوا بالوقت والجهد الذي يبذلونه في سبيل زيادة معارفهم وتمكين ثقافتهم مهما بلغوا من العمر سناً قد يصل إلى أبعد من سن الشيخوخة.

باسم حنا بطرس

أوكلند في الأول من نيسان 2005.

قال لي : أريد أن أنمّي ثقافتي،

قلتُ له : ومَن هو أذكى بمستواه الثقافي منك؟

أجابني : وهل للثقافة حدود؟

سألتُه : وأنت الجَهبذ العلاّمة الكبير، ولما تزال ترنو للمزيد من الثقف؛

فابتسم مؤكداً: وهل يرتوي المرئ من ماءٍ يخفف عنه حال العطش!!

هنا قررتُ التوقف عن الإسترسال، لكي أستجمع أنفاسي، وأراجع مسار هذا الحوار المقتضَب، الذي أخذ يدور في فلك السؤال والإجابة.

لو أدركْنا شخصية هذا الجهبذ العلامة الذي أقصده، لوجدنا أنفسنا في حَيرةٍ من واقع حال الثقافة والتثقّف ومن ثم التثاقف.

إنه الجهبذ والعلامة مصطفى جواد!!

ترى هل تذكرون؟

إني لا أطرح شخصيةً وهمية على غرار شخوص أفلام الكارتون؛ هذا الرجل الذي كان يطل من نافذة شاشة التلفزيون في برنامجه الشيق (قُلْ – ولا تقلْ) فإذا به يسحر الناس ليجلسوا أمام التلفزيون – حين كان التلفزيون غير منتشر عند كل البيوت والعوائل، ليتابعوا ما يتفوه به ويجود بعلمه في مواضيع الثقافة المعاشة، حتى تحول برنامجه إلى "ملتقى" للثقافة فيجلس المثقفون حوالي الرجل الجهبذ، يشاركونه كخلية نحلٍ في إستحلاب الشَهد وإحالته إلى عسلٍ طيب المذاق.

إلتقيتُه مرةً واحدة فقط: كان ذلك في العام 1963 عندما ذهبتُ مساء أحد الأيام إلى مديرية حسابات تلفزيون بغداد لاستلام مكافأتي عن مشاركتي ضيفاً على برنامج ثقافي في التلفزيون. هناك إلتقيت الدكتور مصطفى جواد، الذي كان واقفاً وبكل تواضع أمام شبّاك الصرف – كما في البنوك.

وجدتُها فرصةً قد لا تتكرر: ألقيت عليه التحية التي يستحقها. وبعد أن رد على تحيتي بما هو أجمل، سألني عن مَن أكون. أعطيته إسمي الكامل (باسم حنا بطرس)؛ وإذا به يغمض عينيه – كعادته في الحديث – ويلهج بالترحم على الوالد، حنا بطرس، لأنه كان يعرفه من أيام إذاعة (قصر الزهور) للملك غازي الأول، حين كان مصطفى جواد معنّياً بتدريس الملك الصغير فيصل الثاني اللغة العربية وآدابها، وكان الوالد مشرفاً على الموسيقى والأناشيد الوطنية التي كانت إذاعة قصر الزهور تبثها على الملأ.

قلت له: لدي بضعة إستفسارات، ولا أقول أسئلة، لو سمحتم بوقتكم لإفادتي فيها.
إبتسم بكل هدوء وقال: تفضل.

أجابني بوعيٍ علمي عن إستفساراتي وأسئلتي. وهنا دارت حلقة الحوار: قال مثمناً إهتمامي بالإستزادة من المعرفة، الثقافة ليس لها حدود، فهي معين لا ينضب، يرتوي منه كل مَن جاء يطلب العلم. ونحن كلّنا طلاّب علم!

كلامه هذا إستفزني شيئاً، فقلت له: وأنت الجهبذ العلامة والأستاذ المعلم، أراك طالباً للعلم؟

إبتسم إبتسامةً مشرقةً وقال: إني ما أزال أسير في درب الثقافة والعلم، وهذا الدرب طويل لا نهاية له؛ كل نسمةٍ في الحياة تمنحني خطوةً نحو العلم. وطالما بقي الإنسان يتنسم الحياة، فهو بحاجة دائمة لتوسيع مداركه إستزادةً بنسمات الثقافة.

_____*-*_____

لا أدري كيف إستعادت ذاكرتي هذه الحادثة؛ لكن أمراً حصل يوم أمس حين إستلمتُ رسالة إلكترونية من أخي الصحفي القدير جميل روفائيل، يطلب فيها عنوان الجهة التي أعلنت مكتبتُها عن الكتب والمطبوعات المعروضة لديها للبيع، لأني سبق لي أن أرسلت قبل ثلاث سنوات هذه القائمة إلى العديد من الأشخاص والهيئات، وكررتُ إرسالها قبل أسابيع: في الحالين، ما إستلمت رداً من أي من الشخوص والجهات التي وافيتُها بهذه المطبوعات، سوى جميل روفائيل.

لا أبغي دعايةً (ولا حتى بمستوى الترشيح للإنتخابات) لهذا الرجل؛ جميل روفائيل صاحب القلم السيال الذي سَوَدَ مئات – إن لم تكن أكثر – الصفحات على مختلف الصحف ومواقع الإنترنيت، والإذاعة والمحافل الثقافية. أجده هو الآخر يرنو إلى المعين إرتواء من النبع الثرّ؛ إنه نبع الثقافة والمعرفة والعِلم. وهو – أيضاً – في مرحلة عمرية مقاربة لما كان عليه مصطفى جواد عند مقابلتي له.
أجل، لقد ثبتَ جميل طلبَه من الكتب والمطبوعات، وأحالَه إلى (مكتبة الناصرة) للآباء الدومنيكان، مقرها السنتر، ببغداد – بمعنى آخر: مجلة الفكر المسيحي.

أترى: هي يحتاج شخص بمكانة ومستوى جميل روفائيل إلى توسيع مكتبته بالمزيد من الكتب والمطبوعات؟

هذا هو ديدَن الثقافة والمثقفين؛ وإنها الحياة: أنسام للتنفس، ومنها ديمومة الحياة.

باسم حنا بطرس

أوكلند في 1 نيسان 2005.